" التعبير عن الحس الوطني والقومي في شعر أبي سرور "

تعقيب د . أحمد درويش

لا شك ان الاتجاه الى تكريم الرواد في المجالات المختلفة يحمل كثيراً من القيم الايجابية الدالة على الحرص على تواصل التجربة الحضارية وامتدادها من جيل الى جيل وعلى تقدير المسئولين عن رعاية الثقافة على اعطاء كل جيل حقه بطريقة لا تحول دون حظ الاجيال اللاحقة في التعبير عن مظاهر التطور الذي لحق بها وفي الوقت ذاته تحترم خبرة الاجيال السابقة وتحرص على الاستفادة منها، وبطريقة تدفع الاجيال السابقة على اعطاء خلاصة تجربتها الثمينة لاخلافهم دون ان تحول بينها وبين محاولة البحث عن طريق خاص لا يتعارض بالضرورة مع الطريق العام وانما يثريه ويوسع من دروبه .

وتكريم الشاعر ابي سرور يدخل في هذه الدائرة ، فهو شاعر وقاض وفقيه ومؤرخ وناظم . تمتلئ صفحات المجلدات بما نظم وكتب، وتتنوع المجالات التي كتب فيها. ومن بينها مجال الحس الوطني والقومي الذي نحن بصدد التعليق عليه والقاء نظره سريعة على مجمله .

وتوجيه النقد والتحليل لاعمال الرواد الذين يكرمون سنة طبيعية ومسلك ضروري لارتقاء كل من الادب والنقد، وربما ازدادت الملاحظات وتكاثرت بازدياد شهرة الشاعر وكثرة الحديث عنه، ولم توجه في التراث العربي القديم ملاحظات اكثر قوة مما وجه لابي تمام وللمتنبي، فقد كتبت كتب المآخذ على استعارات ابي تمام وعلى المقارنة بينه وبين البحتري وكثرت حتى دفعت الآمدي لان يكتب كتابا في الموازنة بينهما. وكان بعض النقاد اذا سمع شعر ابي تمام يقول **"ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل"**، وكتبت مؤلفات كاملة حول سرقات المتنبي والكشف عن مساوئه، حتى دفعت أحد القضاة النقاد لكي يكتب عن**"الوساطة بين المتنبي وخصومه"**

وكذلك كان الشأن في العصر الحديث . فشوقي عندما بويع بامارة الشعر تعرض لنقد قاس وعنيف من العقاد وحمل عليه في " **الديوان** " حملة كادت ان تجرده من كل مظاهر الشاعرية، والعقاد نفسه عندما بويع بامارة الشعر بعد وفاة شوقي، حمل عليه الرافعي وغيره من خصومه ، وبشارة الخوري الاخطل الصغير كان حفل تتويجه بامارة الشعر سنة ١٩٦٣ يحمل نقدا قاسيا في معظم ما قيل، من "**احسان عباس**" أو انور المعداوي أو الياس ابوشبكة وغيرهم.

وقد تكون مناسبة تكريم ابي سرور فرصة يتم فيها ابداء الرأي الصريح حول منهجه الشعري في قصائد المناسبات الوطنية، وهو منهج لم يعد مقبولا بالتأكيد لدى الجيل الجديد، لان الوظيفة التي كان يمكن ان يؤديها الشعر في مثل هذه المناسبات، اسندت الى وسائل تعبيرية اخرى مثل التقارير الصحفية والاحتفالات الاذاعية والتصوير التلفزيوني. والذي ينظر الي عناوين قصائد الوطنيات في ديوان ابي سرور يدرك من قصائده، ما قيل في افتتاح مدرسة ام الفروس في صحم وافتتاح المحكمة الشرعية في قريات، وفوز احدى المدارس بالمركز الثاني في مسابقة النظافة، وعندما تحصل هذه المدرسة على المركز الثاني في النظافة فان الشاعر يعتقد ان ملك كسرى لا يساوي ذرة بالقياس الى كاس المركز الثاني في النظافة ويقول :

ترتقي ثاني التفوق فينا ... ملك كسرى امامها وزن ذر

وتستمر القصائد على هذا النحو تحيي كل فرقة كشافة تتشكل وكل جماعة في مدرسة تتكون ، وكل سباق بين البلديات يقام ، وكل حصن يرمم وكل مركز صحي يفتتح . ولا شك ان هذه جميعا مشروعات جليلة ولكن فات أوان تحيتها بقصائد الشعر، وانما يُحّي القائمون عليها من خلال التحقيقات الصحفية، وتقوم امورها من خلال التقارير المدروسة، ويعفي الشاعر نفسه من أن يكرر ما قيل في مناسبة وفي مناسبة آخرى ومن ان يقول كل مرة انه لو كان البحر مدادا لوصف هذه المكرمة أو ذلك الانجاز لنفذ البحر قبل ان تنفذ الكلمات.

ان ذلك النمط من الوظيفة الشعرية، يذكر بما كان يقال دائما عن التفريق بين **"شاعر المجلس" و"شاعر المطبعة"** وان زمان الاتصال الشفوي الذي كان يغري بالتحية والمديح وبأن ينظم الشاعر في كل مناسبة، كانه كما كان يقول النقاد عن شعراء اوائل القرن العشرين لازمة من لوازم الحفل كالكراسي المذهبة، هذا العصر انتهى، وحلت محله طرائق مختلفة لتعبير الشاعر حتى في مجال الوطنيات، التي بات من الممكن ان يعبر عنها الشاعر في عصر **"المطبعة"** بطريقة اكثر هدوء وموضوعية ومن خلال موضوعات تكتسب صفة الديمومة والبقاء وتخرج عن مناخ المناسبات المتغيرة.

إن هذا النمط من الشعر هو الذي يدفع الشاعر عادة الى استخدام لغة خطابية تكثر فيها المبالغات غير المريحة، ولابد ان يصبح كل طفل عندنا عندما يولد يشيب الاعداء من هيبته، وان ترتعد الدنيا كل الدنيا اذا ندّت عنا صيحة غضب، وان ينام كل العالم هنيئا اذا ظهرت منا بسمة رضا .. الخ هذه المبالغات التي تجاوزها الشعر في كل ارجاء الدنيا بما في ذلك الشعر العربي منذ عقود طويلة وهذا النوع من المبالغات يجعل طاقة الشاعر الخيالية تنصرف الى خيال العبارة والمبالغة فيها، بدلا من

الاتجاه الى "**خيال الموقف**" الذي يجعل الشاعر يبتكر مواقف خيالية موازية للمواقع يصوغ من خلالها مشاعره التي يمكن ان يمجد بها الوطن ولو من خلال تأمل زهرة أو مناجاة طائر.

ان اللجوء احيانا الى التعبير عن الامجاد الوطنية من خلال ذكر الرموز التاريخية امر مهم لانه يستنهض الهمم ويسجل امجاد الماضين، لكننا في هذا المقام ينبغي ان نفرق بين قصيدة تاخذ رمزاً تاريخيا او عدة رموز محدودة، ونسج منها بناء شعريا ينطلق خلاله الشاعر في الرمز ليبني عالمه الموحي، ويبني منظومة تحشد هذه الرموز وتذكر انسابها ومؤلفاتها كما حدث في منظومات ابي سرور حيث يكتب مثلا قصيدة في علماء نخل يعدد فيها (٤٢) عالما واخرى في اعلام الرستاق فنجد

(٦٨) عالما؛ اما نزوى فقد اشتملت منظومتها على(٧٧) عالما وعلما. ولا شك ان ذلك ادخل في باب المنظومة التاريخية ، منه في باب القصائد الشعرية، واقرب الى نظم المؤرخين والفقهاء والقضاة، منه الى سبحات الشعراء، على الاقل فيما يتصل بهذا الجانب من شعره، دون ان يمنع ذلك ان تكون في جوانب شعره الاخرى لفتات شعرية جميلة وخاصة في مجال شعر الغزل الذي يبدو افضل الوان شعره ودون ان يمنع ذلك من الاشادة الواجبة بسلامة لغته وسلامة ايقاعه وغزارة انتاجه وهي دروس ينبغي ان تستفيد منها الاجيال اللاحقة، والتحية كل التحية للشاعر المكرم .